

## الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية



## الفصل الأول

### الفتح

الأندلس – المعنى الجغرافي والعنصرى<sup>(١)</sup> :

سمى العرب جميع البلدان الإسبانية التي فتحوها باسم « الأندلس » ، وليس من السهل شرح هذه التسمية ، ويمكن تقريبها من اسم جماعات الفنداليين les Vandales الذين هاجموا إسبانيا ومرّوا بها مهاجرين إلى إفريقيا الشمالية في مبدأ القرن الخامس الميلادى . إذ يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم مضيق جبل طارق سُمى المرفأ الذى أبحروا منه ، ولعله مرفأ طريف Tarifa أو الجزيرة Algéciras ، سُمى باسمهم وقيل له فندلس ، وقد حافظ هذا المرفأ على هذا الاسم حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التي احتلوها بعد أن حرقوه وجعلوه « أندلس » .

ومن المؤرخين من يقول إن إقطاعية إسبانيا الجنوبية كلها ، التي كانت تسمى في العهد الرومانى إقطاعية بيتيك Bétique ، قد سميت بـ « فندالسيا Vandalicia » عند مرور الفنداليين من إسبانيا الجنوبية في أثناء هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية ، ولكن هذا الزعم الأخير لم تؤيده الوثائق .

ومهما يكن من أمر فإن كلمة الأندلس قد استعملها المؤرخون العرب والجغرافيون بسرعة وتقبلوها بسهولة ، وكانت تدل بادئ ذى بدء على إسبانيا كلها ثم أخذت تقتصر على المنطقة التي احتلها المسلمون من الأرض الإسبانية ، ونرى ، حتى هذا اليوم ، أن مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة قد حافظت على هذا الاسم . هذا وإن كلمة « أندلس » كانت تدل على مختلف العناصر التي سكنت

(١) انظر : Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle p. 5 et suiv.

انظر أيضاً : بطرس البستاني ، أدب العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، ص ٢ وما بعدها .

القسم الذي احتله المسلمون من الجزيرة الإسبانية ، سواء أكانوا من الفاتحين العرب أم من سكان الجزيرة الأصليين الذين خضعوا أو لم يخضعوا للإسلام ، ولهذا لم تكن كلمة «أندلس» لتدل إلا على وحدة خيالية، وكان على الحكام المسلمين أن يواجهوا في جميع عصور احتلالهم للأندلس معضلة العناصر والأجناس ، فزاهم أحيانا يعملون من ناحية على قمع ثورات وطنية يقوم بها الإسبان المقلوبون على أمرهم ، وزاهم من ناحية ثانية يضطرون في أوقات كثيرة إلى قمع حركات داخلية تقوم بها العناصر الفاتحة التي جاءت من مختلف المناطق : من الشرق ومن إفريقيا ومن المغرب ، وهكذا سرى أن تاريخ الأندلس السياسي كان دائماً مهدداً بخطرين : خطر سكان البلاد الأصليين ، وخطر العناصر الفاتحة ولا سيما البرابرة .

### الفتح :

كانت إسبانيا ، في الوقت الذي أخذت تجذب فيه أنظار العرب على أسوأ حالة من الضعف السياسي والاجتماعي . وهذا ما ساعد على فتحها . فإن الضرائب الباهظة امتصت ثروة الطبقة الوسطى ، واستبد الموصرون ، على قلوبهم ، بأراضيهم الخصبة ، وأخذوا يستغلونها لترفهم ولذاتهم ، على حين كان الفلاحون عبيداً مرهقين . ولم تبدل النصرانية ، على رغم انتشارها في إسبانيا ، كثيراً من الشرائع الرومانية القديمة . فظلت السيادة لأصحاب الإقطاعات والعبودية للفلاحين والضعفاء . وكان القوط Wisigoth هم الذين دخلوا هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد وأقاموا مطمئنين بعد أن قضوا على سلطان الرومان وأقاموا سلطانهم واتحلوا النصرانية ديناً ، ولكنهم صاروا بها إلى الاضطهاد وإلى احتقار الرومانيين لأنهم مغلوبون ، فطبعي أن تُفضى هذه الحالة إلى اختلال في بناء الدولة ، وأن يعمقها أكثر الشعب ويتمنى زوالها .

وكان على إسبانيا ملك يقال له لدرىق Roderic اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك غيطشة Witiza . وكانت مدينة سبتة Ceuta الواقعة في أقصى شمال المغرب يحكمها عامل لقيصر الروم يدعى يليان Julien ، وكانت بينه وبين لدرىق عداوة شديدة لا تدخل في أسبابها ، إلا أن هذه العداوة حملت يليان على السعي

لإسقاط للبريق وتلّ عرشه . لذلك ليس عجيباً أن نراه يساعد العرب ويمهد لهم سبيل الفتح .

« فكتب يليان إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يُرّين له فتح الأندلس ، ويصف خصب أراضيها ووفرة أموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها وانقسام بعضهم على بعض ، ووعدّه بالمساعدة ، فاستأذن موسى بن نصير الخليفة بغزو الأندلس فأذن له على أن يأخذ حذره ويخوضها أول الأمر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النّخعي ، في أربعمائة راجل ، ومائة فارس ، فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفنّال التي اشتق منها اسم الأندلس ، فسميت جزيرة طريف Tarifa لتزوله بها ، وأقاموا فيها أياماً ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا مالاً جسيماً وسيّاً لم ير موسى وأصحابه مثله .

« وعاد يليان يحرّض موسى على اقتحام الأندلس حتى أغراه ، وفي الواقع لم يكن موسى ليريد أن يقوم بحملة كبيرة ، إنما كان يرغب القيام بغزو متبعاً بذلك توصية الوليد (١) . وبدافع هذه الفكرة دعا بيربري من مواله اسمه طارق بن زياد ، فعقد له ، وبعثه في سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلاّ ثلثمائة من العرب ، فأقلّتهم سفن يليان التجارية لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة إلى جزيرة الفنّال ، ويسميا العرب الجزيرة الخضراء ، وكان نزولهم عند جبل كلبة Calpe فقيل له جبل طارق » (٢) .

ولن ندخل في تفاصيل الحوادث . فقصة الفتح وما رافقها من زيادة أو نقص موجودة في مختلف الكتب التاريخية ، ولكننا نشير فقط إلى أن العنصر البربري هو الذي كان يهيمن في هذه الحملة الأولى وأن المقاومة التي لاقاها العرب في الجزيرة الخضراء لم تكن شديدة . فعندما علم ملك الإسبان للبريق بتقدم المسلمين حشد الجيوش وكتب إلى أولاد غيطشة يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم

(١) يرى هذا الرأي ليق بروفنسال ، انظر المصدر السابق ص ٩ .

(٢) بطرس البستاني . المصدر السابق ص ٣ - ٤ .

من القعود عنه ، فلم يجدوا بدءاً من إجابته ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه لأنه كان قد اغتصب الملك من أبيهم — كما ذكرنا — . وفي وادي بكة Bekka التي الفريقان ، وكان جيش طارق قد أمد بخمسة آلاف بربري جاءوه من المغرب فبلغ اثني عشر ألفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم ، وكان جيش لذريق ، على رواية ابن خلدون ، أربعين ألفاً ، وعلى رواية المقرئ مائة ألف ، وينقل بطرس البستاني في كتابه أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث عن كليان هوار قائلاً : « إن جيش الإسبانيين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وإن أغلب سلاحه العصي والمقاليع » ولا ندرى إلى أي حد يمكن أن نؤمن بهذا القول . وتحمل البرابرة صدمة الجيوش القوطية وظفر المسلمون ظفراً لم يكونوا ليحلموا به بعد معارك دامت ثمانية أيام وتم النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ .

على أن أولاد غيطشة ويليان صاحب سبته لم يظاهروا العرب في غارتهم على الأندلس إلا لاعتقادهم أنهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم ، فشدوا أزرهم للتخلص من لذريق . والعرب أنفسهم لم يكونوا مصممين على البقاء في إسبانيا عندما اقتحموها ؛ يدل على ذلك حديث رواه المقرئ لميمون العابد ، وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس ، فقد قال لأحد أولاد غيطشة : « إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاةً نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا أكثرنا من العدة » (١) .

وبلغ موسى بن نصير فتح الأندلس ، فحسد طارقاً ، وطلب إليه أن يتوقف عن الإيغال في البلاد حتى يأتي إليه ، ولكن طارقاً لم يطعه بل تابع الفتح ، وأراد موسى بن نصير أن يناله نصيب من المجد فحشد جيشاً يزيد على العشرة آلاف من البربر والعرب (٢) وعبر بهم بحر الزقاق ودخل الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ ولكن عوضاً عن أن يلحق بطارق أخذ يعمل لحسابه الخاص فافتتح إشبيلية وماردة Mérida في غربي إسبانيا واستعمل دار السكة وضرب باسمه نقوداً ذهبية .

(١) بطرس البستاني ، المصدر نفسه ص ٥ .

(٢) يقول ليني يرونسال إن هذا الجيش كان كله من العرب هذه المرة وفيه كثير من البايين والقيسين مع مولاهم . انظر المصدر السابق ص ٩ .

هذا وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت أكثر الأندلس عندما ذهب موسى إلى طليطلة فاستقبله فيها طارق ، ونزل إليه إعظاماً إلا أن موسى قد وبخه على عصيانه ثم أظهر الرضا عنه ، وتابع وإياه الفتح متوغلين في بلاد الفرنجة . وبينما كانا يتنقلان من بلد إلى آخر إذا بأمر الوليد بن عبد الملك يدعو موسى إليه وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم فولّى موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس وعاد مع طارق قاصدين الشرق . وكانت إسبانيا المسلمة قد أدركت حدودها النهائية في الفتح .

ومنذ أن ترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس بدأ عهد الولاة .

## الفصل الثاني

عهد الولاة ٩٢ هـ / ٧١٠ م - ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م

إن عهد الولاة في الأندلس يبدأ في الواقع بطارق بن زياد ، ثم بموسى بن نصير ثم بابنه عبد العزيز ، فبعد مقتل عبد العزيز هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر دون أن يرسل بنو أمية والياً إليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فحكم في قرطبة مدة قصيرة ، ثم تعاقب الولاة بعدئذ على الأندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية . وافتتحت بلاد جديدة في عهدهم كبرشلونة Barcelona وقشتالة Castille وأغار العرب على شواطئ الرون فبلغوا ليون Lyon وتقدموا في قلب فرنسا حتى بلغوا تور Tours وكادوا يعبرون اللوار عندما هب لملاقاتهم شارل مارتل بجموع الفرنجة في سهل بواتيه ، وردّهم على أعقابهم ، وقتل في الواقعة قائد العرب عبد الرحمن الغافقي والى الأندلس وكان ذلك سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في أوروبا بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم . فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب ، واستحكمت الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمانية .

ولن نشير هنا إلى تفصيل الحوادث بل نكتفي بالقول إن ثورات البرابرة خلال هذا العهد ليست سوى صدى للحوادث الدامية التي كانت تجري في المغرب . فقد حدث أن ثار البرابرة في المغرب على الشاميين والمصريين ، فتحرك برابرة الأندلس وثاروا بوالها عبد الملك بن قطن ، هذا فضلاً عن أن البربر كانوا يعتدّون بأنفسهم لأن الفاتح منهم والفتح قد تم على أيديهم ، ويرون أنهم أولى من غيرهم بتقلد الحكم . وقد حملت ثورات البرابرة الخليفة هشام بن عبد الملك على أن يرسل فجدات إلى

إفريقية وكان من بينها نجدة الجند السوريين تحت قيادة بلج بن بشر الذي استطاع أن يخدم ثورتهم في إسبانيا .

هؤلاء الجند الشاميون يجلبون انتباهنا ، إذ أنهم سيلعبون دوراً هاماً في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس ، وسينقلون إليها النظم الشامية والتقاليد العسكرية التي كانت سائدة في الشام ، والتي ستبقى من مميزات الدولة الأموية في الأندلس .

وقد أخذ الجند الشاميون يتصرفون في بلاد الأندلس بحسب أهوائهم ونزعاتهم القبلية ، إلا أن إقامتهم فيها قد كوَّنت نواةً عربية هامة أخذت تقاوم نشاط البرابرة وتخفف من غلوَّاتهم .

ومن السهل ، بعدُ ، أن نلاحظ أن وضع المغرب الإسلامي المضطرب كان يستدعي أن يدفع العرب إلى التفكير في تأسيس دولة قوية فيه ، وستقع مهمة تأسيس هذه الدولة على عاتق عبد الرحمن الداخل بعد أن تضعفت سلطة الأمويين في الشرق بنشاط الدعوة العباسية .

## الدولة الأموية

إمارة قرطبة المستقلة وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث

(١٣٨ هـ / ٧٥٦ م — ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)

بعد أن انهار البيت الأموي في الشرق وأعمل العباسيون السيف في رقاب الأمويين ، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان ، وكان شاباً ، أن ينجو من بطش العباسيين ويفرّ مستخفياً مع مولاه بلر حتى خلص إلى المغرب . وقد بقى خلال أربع سنوات هائماً على وجهه في شمال إفريقية حتى نزل على أخواله بني نقرّة بالقرب من سبتة . وكان عبد الرحمن في أثناء تجواله يظهر نشاطاً سياسياً ، فهل كان يرغب بتأسيس دولة في إفريقيا ؟ إن هذا لممكن ، إلا أن الأرض المواتية لطموحه السياسي ما كانت إلا الأندلس التي تضم نواة أموية شامية وهي جند بلج ، أضف إلى ذلك العوامل الأخرى التي كانت تساعد لتحقيق ما يبغي

كحماية البربر له لأن أمه كانت بربرية .

وقد استطاع عبد الرحمن في كثير من الحلق السيامي أن يستثمر لصالحه الخاص المنازعات القائمة بين القيسيين واليمانيين ، وكانت كل هذه العوامل سبباً في نجاحه ، لذلك لم يطأ أرض الأندلس حتى استقبل استقبالاً فاق حدّ خياله . فانتصر على الصَّمَمِيل ويوسف القهري ، والي الأندلس ، وأهلكهما ، ودانت له الأندلس وأصبح أميرها ولُقِّبَ بالداخل لدخوله لإياها ولقَّبه أبو جعفر المنصور بصقر قریش ، وكان دخوله قرطبة ، التي جعل فيها سرير ملكه ، في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ . ققطع الخطبة عن بني العباس ودُعِيَ له على المنابر وبني المسجد الجامع في قرطبة واختط مدينة الرُّصافة في شالها على مثال رُصافة الشام لجدّه هشام ، وجعل بلاطه كبلاط للذريق في عظمته وبهائه ، وبدأت منذ ذاك العهد إمارة قرطبة المستقلة وتأسست الدولة الأموية .

فما هي صفات هذا التأسيس وما هو منهج مؤسس هذه الإمارة ؟

لم يكن عهد إمارة قرطبة المستقلة في الواقع سوى عهد طويل لتعزيز السلطة الأموية في الغرب الإسلامي ، ويجب علينا أن ننتظر عهد خلافة عبد الرحمن الثالث لكي تتمركز نهائياً هذه السلطة وتبلغ الحضارة الأموية أوجها وعهدها الذهبي . ومنذ أن أصبح عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس أخذ في تحقيق برنامجه . وكان هذا البرنامج يرمي إلى أمور ثلاثة :

١ - تنظيم الجيش الذي قاد إلى الظفر .

٢ - فتح أبواب الأندلس أمام الأمويين المضطهدين في الشرق .

٣ - إيجاد التفاهم بين عناصر العرب ولا سيما القبائل التي يحارب بعضها بعضاً ، ودعم السلطة الأموية باللجوء إلى توطيد الأمن في جميع أنحاء البلاد الأندلسية .

ولم تكن سياسته سوى سياسة جلب واسترضاء ، وكان من نتائجها أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تتوالى على بلاد الأندلس لدعم هذه الدولة الناشئة ، وتعزيزها ، وكون المرأتين ما نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص . هذا وإن حملة شارلمان الشهيرة تقع في النصف الثاني من حكم عبد الرحمن

الداخل ، فقد قطع شارلمان جبال البرنه في جيش من الفرنجة وجاء فحاصر سرقسطة سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م إلا أنه اضطر لترك الحصار فجاءة عندما استلعي للعودة إلى شواطئ الرين ، فقام عبد الرحمن عندئذ ، مستفيداً من عودة شارلمان ، وحاصر سرقسطة واحتلها مدة قصيرة ثم أرسل حملة لحقت بشارلمان في مقاطعة الباسك وأنزلت به هزيمة فادحة .

وكان من نتاج هذه المعارك بين العرب وشارلمان في شمال الأندلس تلك الملحمة الرائعة « أنشودة رولان » التي هتف بها شعراء مجهولون مجلدوا فيها مصرع أبطال شارلمان وعلى رأسهم الفارس الكبير رولان وغيره من الأبطال الذين كان يعتر بهم شارلمان .

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل أربعاً وثلاثين سنة ( من سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م إلى ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ) وعند وفاته كانت الدولة الأموية في الأندلس تتمتع من الناحية السياسية والاجتماعية بجميع صفات الدولة القوية المنظمة ، وكانت تمتاز بطابعها الشامي ، هذا الطابع الذي أخذ يظهر في التقاليد وفي نمط النظم وأشكال البلاط ، حتى أصبح لدى كل أمير أموي ميلاً لوسم الأندلس بالسمات التي كانت تمتاز بها الدولة الأموية في الشرق ، سواء أكان ذلك في العادات أم في نمط الحكم أم في تنظيمات الدولة .

وتداول الملك بعد عبد الرحمن الداخل أبناؤه وأحفاده فذكر من بينهم هشاماً الأول والحكم الأول وعبد الرحمن الثاني وغيرهم ، وفي أثناء حكم عبد الرحمن الثاني ( ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م - ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ) قدم الأندلس من بغداد المغني زرياب تلميذ إسحاق الموصلي ، وقد كان له تأثير كبير في نقل كثير من العادات الشرقية السائدة في بلاط بني العباس إلى بلاد الأندلس . وقد أخذت تلك العادات الحضرية تنتشر في كثير من الأتق والنوق الناعم ، وتبدو على الأخص في المأكول وفي قوانين المآدب والحفلات ، وقد كان لقدم زرياب تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية .

إن نجاح صقر قريش في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس يعدّ حادثاً هاماً

في تاريخ العرب ، وإذا كانت الدولة الأموية قد وطدت دعائمها في هذا العهد عهد إمارة قرطبة المستقلة ، فإنها بلغت أوجها من الرقي والحضارة في عهد عبد الرحمن الثالث . فبملكه تبدأ الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٣٠٠ للهجرة ، هذه الخلافة التي ازدهر فيها الأدب والفن ازدهاراً سنرى مداه ونشعر بأصالته وغزارته .

## الفصل الثالث

### خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث

عندما تقلّد عبد الرحمن الثالث زمام الحكم كان قد بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة . وعلى الرغم من صغر سنه فقد إختاره جده عبد الله لما توسم فيه من المقدرة والصفات الحسنة . وقد دام ملكه خمسين حَولاً من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م إلى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . ولم يعرف التاريخ الإسلامي عهداً زاهراً كعهده ، وقد سمحت له مدة مُلكه الطويلة أن يؤمّن لسياسته نوعاً من الاستقرار لم يعرفه الملوك الذين سبقوه ولا الذين لحقوه . فسَنهد إلى الميادين يحمّد الفتن ومراكز الثورات التي لم تنطفيء نارها منذ أن أقدم المسلمون إلى الجزيرة الإسبانية عاملاً على إخضاع العصاة وجمع كلمة المسلمين ، ثم قام بغزوات لقهر المناوئين من ملوك الإيبان فدان أكثرهم له ووفدوا إلى بلاطه خاضعين ، وذاع صيته وانتشرت سطوته فوفد إلى حضرته السفراء من القسطنطينية وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وجعل الأندلس أمة واحدة تحت سلطانه واستكثر من الصقالية واعتمد عليهم في الجيش وخطط الدولة ، فأزال بهم زعامة الأرسقراطية العربية .

وكان أمراء بنى أمية يطمعون في استرجاع الخلافة ويتحينون لها القرص ولم يتلقبوا أول أمرهم بألقابها مخافة أن يجد المسلمون في عملهم بدعة لأن الخلافة العباسية كانت في إبان عظمتها ، فلا مسوغ لقيام خلافة أخرى ، فلما صار أمرها إلى الضعف وبدأ الانحلال والوهن يدب في جسمها حتى أصبح الخليفة العوبة في أيدي الجند من الأتراك ومن مواليه سنحت الفرصة لملوك الأندلس ، فاغتمتها عبد الرحمن الثالث وأعلن نفسه خليفة ولقّب بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وكان الناصر أعظم ملوك الأندلس وأول خليفة فيها . بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها ، واحتلت مكانة سياسية ومدنية عظيمة في نظر المسيحية والعالم

الإسلامي نفسه . ونهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة ونافت قرطبة بغداد في أعظم أيامها . فبلغ عدد سكانها فيما يروون نصف مليون وكان فيها مئة وثلاثة عشر ألف جامع وثلاثمائة حمام وثمان وعشرون ضاحية . حتى لم يعد لها في كل المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة المحال وفسحة الأسواق وكثرة العمارات والحمامات والقنادق (١) .

وبني الناصر على مقربة من عاصمة ملكه قرطبة قصرأ أسماه الزهراء باسم جارية له كانت تمت عليه أن يبني لها قصرأ . فكانت الزهراء هذا القصر الفخم الذي قضى الناصر في بنائه وإعداده خمساً وعشرين سنة واستدعى للعمل فيه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية ، وأجرى فيه المياه وأنشأ حوله الحدائق والبساتين بحيث أصبحت قرطبة وزهراؤها مدينة سحرية تخلب الناظرين بجمالها .

وقد ذكر المقرئ : « أن مُلكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وقفت عليه خاضعة رغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية الكبرى فإنه هاداه ورغب في موادعته » (٢) وقد زحرت بيوت الأموال في زمنه فبلغ دخل الخزينة نحو ستة ملايين دينار في العام . وكان الناصر يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجنود وثلث للبناء وثلث مُدّخر .

وقد أنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين وجيشاً قوياً سيطر به على أكثر بلاد الأندلس ، وأسس المدارس وشجع العلماء ونهضت الآداب والفنون في زمنه نهضة مباركة .

ولما توفى عبد الرحمن الناصر كان له من العمر سبعون عاماً . وقد عرفت بلاد الأندلس في زمنه حياة الدعة والرخاء وحقاً لقرطبة أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن .

(١) انظر : جبرائيل جيور ، من مقال له عن الأدب الأندلسي في مجلة الأبحاث - بيروت ،

السنه ٢ الجزء ٢ ، حزيران ١٩٤٩ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٩ .

### الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

انتقلت الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر إلى ابنه الحكم ، وجرت بيعته في حفل عظيم وصفه المقرئ وصفاً مفصلاً يدل على أبهة المراسيم التي جرت (١) .

كان الحكم كأبيه حازماً حسن التدبير ، أخضع الثائرين من الفرنجة ، وملك خمس عشرة سنة ( ٣٥٠-٥٣٦٦هـ ) في يُمْنٍ وإقبال . وكان الحكم ميالاً إلى العلوم والآداب محباً لها مكرماً لأهلها جمعاً للكاتب بأنواعها ، ذكر المقرئ أن عدد الفهارس في خزنة العلوم والكاتب في عهده بلغت أربعاً وأربعين فهرسة ؛ في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير (٢) .

وقد امتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة . وجعلها مجانياً للطلاب ، وأتم بناء الجامع الكبير الذي كانت تدرس فيه العلوم والآداب العالية ، وأرسل البعث العلمية إلى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتي بها إليه حتى جمع في خزنته أربعمئة ألف كتاب ، وذكر المقرئ أنه اشترى نسخة من الأغاني بمبلغ ألف دينار من الذهب .

### الحاجب المنصور - استبداد العامرين :

كان الحكم قد عهد ، في حياته ، أمر الإشراف على ابنه هشام إلى محمد بن أبي عامر ، وكان شاباً ذكياً استطاع بدهائه أن يكسب عطف الملكة صُبْح ، امرأة الحكم ، الإسبانية الأصل ، وقد كانت تهواه . واستطاع أيضاً أن يتقلب في مناصب عالية حتى أصبح حاجباً ، وبعد موت الحكم استبد بشؤون الدولة مستغلاً حداثة سن هشام ، فأخذ يتخلص من منافسيه واحداً واحداً حتى تنكر في النهاية لصبح نفسها وتسلم زمام الأمور بيده واستبد بالملك وأصبح ملكاً على الأندلس ولقب نفسه بالحاجب المنصور ، ودعى له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة .

(١) انظر : فنج الطيب ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) فنج الطيب : ج ١ ص ١٨٢ .

وقد كان المنصور كثير الغارات قام بنحو عشرين غزوة استرد بها ما كان فقده الحكيم في أواخر عهده حين انصرف بكليته إلى الآداب والعلوم . وقد أعاد إلى الملك سطوته ومجده وهابه ملوك الإيبان . وبموته سنة ٣٩٣ هـ وموت ابنه المظفر من بعده انتهى حكم العامريين المستبد وتعود السلطة إلى البيت المرواني ويطرأ على الدولة الفساد وتسود الفوضى ويضطرب الأمن وتسير خلافة قرطبة نحو الاضمحلال والضعف .

وقد تجلّى بطش المنصور في غزواته الكثيرة على الفرنجة وهدمه مدنهم حتى أنزل الرعب في قلوبهم . وقد كان محبباً للفلسفة فرمى بالزندقة ، وقرب العلماء والشعراء وأحسن صلاتهم فنطقوا بحمده وأشادوا بذكوره .

وقد كانت الفترة التي تلت موت المنصور فترة مضطربة تعاقب فيها خلفاء ضعفاء إلى أن انتهت بجناح هشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ، فكان آخر خليفة في قرطبة ، فانقطعت الخلافة الأموية ، وصار الأمر في قرطبة إلى الطبقة الأرستقراطية . ثم قام رؤساء الطوائف في الولايات ، من بربر وعرب وموال ، يقتسمون خططها ويستبدون بأمرها ، فعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف .

## الفصل الرابع

### ملوك الطوائف

٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م

عندما أخذ الضعف يدب في جسم الدولة الأموية ، بعد أن استبد العامريون بأمر الخلافة ، بدأ رؤساء الطوائف يستقلون بالإمارات التي يحكمونها فعرفوا بملوك الطوائف .

وقد أصبحت المدن الهامة في الأندلس عواصم لهذه الدويلات الصغيرة . ومن أهم هذه الدويلات (١) :

الدولة الزيرية : استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ ، وهي دولة يبربرية ، ظل مُلكها إلى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

والدولة الحمودية : استقلت في عهد المستعين الأموي سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، وهي شيعية من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي . تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وانقرضت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م

والدولة الهودية : في سرقسطة Saragosse من سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م إلى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وهي دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤمن .

والدولة العامرية : في بلنسية Valence من سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م إلى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهم بن موالى بنى عامر .

والدولة العبادية : في إشبيلية من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وهي عربية من بنى نخم من ولد النعمان بن المنذر ، وقد اتصل بملوكها الشاعر بن زيدون ، وهي من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب .

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون ، وقد استقينا هذه المعلومات باختصار عن كتاب أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني .

ودولة بني الأفتس : في بطليوس Badajoz من سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون .  
والدولة الجهورية : في قرطبة من سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م قامت بعد سقوط الخلافة الأموية . فتولى الأمر عميد طبقة الخواص في قرطبة أبو الحزم بن جمهور ثم توارث الحكم أبناؤه من بعده .  
ودولة ذى النون : في طليطلة من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ م وهى بربرية من قبائل هوارة .

وقد قامت بين ملوك الطوائف حروب متصلة ، وكان القوى فيهم يغلب الضعيف فيزيل سطاتنه كما حدث أن أزال ملوك بني عباد حكم بني جمهور في قرطبة . ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ، فيغتم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على عواصمها ويخضعون ملوكها ويجعلونهم عمالاً لهم ، كما فعل فرديناند الأول بالمظفر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وكما فعل ألفونس السادس بملك سرقسطة .

ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سيامياً فقط ، بل كان أيضاً عمرانياً وأدبياً وفتياً ، فتنافسوا في ابتناء الحصون والقلاع وتنافسوا في مجالس الأدب والطرب وفي تشجيع الشعراء والكتاب والمغنين .

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب لخلقاء بني أمية وإن زالت خلافتهم ومنهم من خطب لبني العباس على رغم بعدهم عنهم ، ومنهم من تقلب بنعوت الخلقاء كبنى عباد فكان منهم المعتضد والمعتد .

ومن أجل تهافتهم على هذه النعوت العباسية قال الشاعر أبو بكر بن عمار بهجهم :

مما يُزهدُنِي في أرضِ أندلسٍ أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتدٍ  
القَابُ مملكة في غيرِ موضعها كالهريحكي انتفاخاً صورة الأسد<sup>(١)</sup>

(١) تقع الطيب ، ج ٢ ص ١١٢٥ .

ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن نذكر أنهم رعو حركة الأدب وقرّبوا أصحابها وكانت أكثر عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل ملكيّ بطليوس ، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وكان أكثرهم يدعو إلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم ويجالسهم ، وفي عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة .

ودام أمر الطوائف نحو مائة سنة تقريباً استطاع في أواخرها ملوك الإسبان من جمع كلمتهم فهاجموا هذه اللويالات واحدةً واحدةً وقضوا عليها حتى بلغوا إشبيلية عاصمة بني العباد فضايقوا المعتمد حتى اضطر إلى أن يطلب النجدة من أمير المرابطين في العدة الإفريقية . فجاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ومحا ملوك الطوائف ، إلا دولة سرقسطة فإن صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون إلاّ في سنة ٥٠٣ / ١١٠٩ م ، واستعادها ألفونس الأول ملك أرغون Aragon سنة ٥١٢ / ١١١٨ م .

## دولة المرابطين<sup>(١)</sup>

تنحدر هذه الدولة من قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة في المغرب ، وكان من عاداتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فلقبوا باللمثمين .

وسُمُّوا بالمرابطين لأن أحدهم يحيى بن إبراهيم أسلم فجاء بفتيحه اسمه عبد الله بن يامين ليعلم قبيلته القرآن وأحكام الدين . ثم مات يحيى فتفرق الناس عن الفتية ، فلم يفت ذلك في عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً فسموا المرابطين<sup>(٢)</sup> .

ولما كثُر عددهم حتى بلغوا الألف قام عبد الله وحضرتهم على الجهاد في سبيل الحق وأمرهم بإرشاد عشائرتهم ، ولما أبت هذه أن تهتدى بهديهم شنوا عليها الغارة وقتلوا منها خلقاً كثيراً حتى أسلمت . ثم تابعوا الغزوات في بلاد المغرب يدعون الناس إلى دينهم ناشرين الرعب والهول في تلك الأنحاء .

وجعل عبد الله قيادة الجيش ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة في قبيلته لمتونة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٨٨ هـ . فلما مات خليفته أخوه أبو بكر ، ثم تنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ ، فدوخ يوسف المغرب وفتح فاس وطنجة وسبتة وبنى مراکش وجعلها داراً له فعظمت هيئته وذاع ذكره .

وكانت الأندلس في تلك الحال تعاني أشد الضيم من ملوك الإسبان . فإن ألفونس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة ، وأخذ في المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حده أجمعوا رأيهم على استنصار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية

(١) باختصار عن بطرس البستاني ، المصدر السابق .

(٢) الرباط والرابطة : مكان يفرد به المسلمون للعبادة ويتأهبون فيه للجهاد ، فهو بيت دين

وحرب .

يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ، وكتب إليه أهل الأندلس كافةً يستنجدونه على العدو المغير ، فجمع جيشاً كبيراً وجاء إلى نجدة المعتمد في كئاب بربرية من قبائل زناتة ومصمودة وقهر الإفرنج في واقعة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقب منذ ذلك اليوم بأمير المسلمين وأتاه به تقليد الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ، ولقبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً بعد أن ثبتت للمعتمد سلطته .

وما كادت تنقضي ثلاث سنوات حتى أعاد الإفرنج الكرة وطلب المعتمد النجدة ثانية فعاد ابن تاشفين وقضى على المناوئين سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، وهنا طابت لابن تاشفين الأندلس ورياضها الغناء وقصورها ومناعها<sup>(١)</sup> ومواردها الصافية فاستبد بالملك لنفسه ، وانتحل الحصومة مع المعتمد وأخذته أسيراً إلى أغمات في أفريقية حيث قضى غمماً وحزناً في منفاه وملك ابن تاشفين الأندلس .

وتوفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بعد أن أصبحت الأندلس ولاية للمرابطين ، وآلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده عليّ ، فجعل مقره مراکش وترك في الأندلس أخاه .

ولم تنعم الأندلس في دولة عليّ فإن تعصبه الشديد للدين ، واستمساكه بمذهب مالك وكراهة غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء فساد التعصب والإرهاب ، وكثرت الوشائيات ، وخنقت حرية الفكر . وفي أيامه ظهر المهديّ محمد بن تومرت في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالا على دولة المرابطين سبباً لقيام دولة الموحدين .

ودام حكم المرابطين في الأندلس نحو ستين سنة أدبيل منهم بعدها إلى الموحدين .

(١) منى : ج منية ، وهي قصر يحيط به روض .

## دولة الموحِّدين

(٥٢٤ / ١١٢٩ م - ٦٦٧ / ١٢٦٨ م)

الموحِّدون طائفة أخرى من إفريقية من أصحاب ابن تومرت الذى أراد أن يضع للدين عهداً جديداً فدعا نفسه بالموحِّد وجمع حوله الأنصار وأعلنت شيعته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم فى إفريقية ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس وغلبوهم أيضاً فيها . وإليكم نبذة عن نشأتهم<sup>(١)</sup> .

نشأ محمد بن تومرت فى جبل السوس من المغرب الأقصى وقومه من بنى مصمودة ، وهى قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى منذ حداثة فكان يزور قبور الأولياء ويتبرك بها . وطلب العلم فى بلده فوجد أن المدارس فى الغرب لا غناء فيها فرحل إلى الشرق وجاء بغداد ، وتلمذ لأبى حامد الغزالي فى المدرسة النظامية ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدين .

فلما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بأهداب الشرع وإقامة أحكام السنة ، وبين لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم ، وأطلق على طريقته اسم التوحيد فتبعه خلق من بنى قومه عرفوا بالموحِّدين . ثم أوقع فى خطبهم أن النبي بشر بالمهدى الذى يملأ الأرض عدلاً ، وقال إنه يخرج من المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال وقالوا له : « أنت المهدى » وبايعوه ، وساروا فى ركابه ، يثون له الدعوة فى بلاد المصامدة ، حتى كثر أتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم فبايعوه على الموت ، فراحوا يغزون فى بلاد المغرب ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحصروها ، ولكنها امتنعت عليهم ، ومات المهدى سنة ٥٢٤ هـ ، قبل أن يفتحوها ، وكان قد أوصى بعده لعبد المؤمن بن على ، أحب صحابته إليه ، فبايعوه بالخلافة وتلقب بأبى المومنين .

(١) باختصار عن : بطرس البستاني ، المصدر السابق .

وتابع عبد المؤمن جهاده حتى أزال دولة المرابطين وأقام دولة الموحدين ، وجاءته الوفود من الأندلس تدعوه فأجاز إليها جيشاً من الموحدين وامتلكها وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين أوج عزها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الثاني بعد المهدي ( دامت خلافته من سنة ٥٥٨ – ٥٨٠ هـ ) ثم في عهد ولده أبي يوسف يعقوب الخليفة المنصور ( ٥٨٠ – ٥٩٥ هـ ) .

ومع تمسك الموحدين بأموال الدين ، كانوا أكثر ميلاً من المرابطين إلى تشجيع العلوم والآداب وأعلق منهم بالحضارة : فإن أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طفيل وابن رشد ، وعنى بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في إشبيلية .

وقد دام ملك الموحدين نحو مئة وثلاثين سنة استطاع بعدها ملوك النصارى في الأندلس قهرهم وإخراجهم من الجزيرة والاستيلاء على أكثر إماراتها .

## دولة بني الأحمر<sup>(١)</sup>

بعد زوال الموحديين من الأندلس ، استطاع محمد بن هود صاحب بطليوس أن ييسط سلطانه على كثير من المدن الأندلسية فشمّل به بطليوس ومرسية وقرطبة وإشبيلية . وكان يرى في مقاتلة أعدائه النصارى عاملاً لدعم قوته وسلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يردّهم عن مملكته ويحرس استقلالها . وفي هذا الوقت الذي كانت فيه الأندلس ترزح تحت عبء الفتنة والضعف كان في أرْجُونَة ، من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بني الأحمر عميدها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر ، فقام هذا أيضاً بقتال النصارى ، ولكن روح التنافس والضعف لم تكن لتسمح للمسلمين بالثوق ، واستطاع الإفرنج أن يستولوا على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحاصروها ستة أشهر ثم سقطت في أيديهم سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وكان سقوطها كارثة عظيمة بعد أن لبثت نحو خمسمائة وعشرين سنة عاصمة مملكة إسبانيا المسلمة<sup>(٢)</sup> . وقتل ابن هود في المرية *Almería* ولم يبق للمسلمين غير إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة يتولاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فرديناند الثالث . وهذه الدولة الصغيرة استطاعت أن تمتد في وجه التوسع الإفرنجي مدة طالت نحو قرنين ونصف ، ويعود ذلك إلى أن الملوك الإسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم بعضاً ، وأنها كانت تستنجد سلاطين المغرب في ضنكها فيجيزون إليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن أرباضها .

وقد عرفت غرناطة في حكم بني الأحمر أزهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم . وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب ، فنبغ في دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعُرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر ،

(١) باختصار عن : بطرس البستاني ، المصدر السابق . انظر أيضاً : محمد عبد الله عنان ،

نهاية الأندلس ص ١٨ - ٤٠ .

(٢) راجع سقوط قرطبة في تاريخ ابن خلدون وفي فتح الطيب .

كأبي عبد الله محمد بن محمد الخلوع ثالث ملوكهم .

وفي سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م ، أي بعد نحو ثمانية قرون من عام الفتح ، هاجم فرديناند وإيزابيلا بنى الأحمر فسقطت غرناطة ، آخر معقل للفاطحيين ، وسلم أبو عبد الله ، آخر ملوكها ، مفاتيح الحمراء إلى الغالبيين .

ويروى أن أبا عبد الله قد أعطى ضيعة يقيم فيها ، فخرج وأهله من قصر الحمراء حزينا منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتى إذا انعطف به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع ، فقالت له أمه عائشة :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ. عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم زفرة المغربي . وأقام أبو عبد الله في ضيعته الحديدية مدة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتخذها مقراً حتى مات . وهكذا زال ملك العرب من بلاد تركوا فيها مجدهم وآثارهم وحضارتهم وجلا آخر عربى تحت تأثير اضطهاد الإسبانين الذين لم يفوا بعهودهم وأقفر الفردوس المفقود .

وصارَ ما كانَ مِن مُلْكٍ وَمِن مَلِكٍ كَمَا حَكَى عَن خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ

السمات المميزة لهذه الأدوار (١) :

تسم مختلف هذه العصور بسمات خاصة : فالدور الأموى الذى يشمل عهد الولاة وعهد الإمارة وعهد الخلافة كان دور السيادة العربية . فيه نزح إلى الجزيرة الإسبانية أكثر من جاء إليها من العرب ولا سيما أهل الشام وتفرقوا في المدن الأندلسية . وقد نشط العمران في هذا الدور وتوضّحت في آخره أسس النهضة الأدبية والغنائية .

(١) باختصار عن الدكتور جبرائيل جبور ، من مقال له في مجلة الأبحاث عن الأدب الأندلسي .

أما الدور الثاني دور طوائف الملوك فقد تميز بازدهار الحركة الأدبية وكثرة الشعراء والشاعرات وشاع فن الموشح بعد أن ظهرت ثلاثه في مطلع هذا الدور .

واتسم دور المرابطين بالتعصب الديني وبتسلط البرابرة وضعف الحركة الأدبية وظهور الزجل ، هذا الشعر العامى الشعبي الذى لاقى رواجاً كبيراً في هذا العهد وكاد ينافس الشعر التقليدى .

وتميز دور الموحدنين بالحماسة الدينية ، ولكنها لم تقيد الفلاسفة فتمت الحركة الفلسفية نمواً دعا إليه التأمل الدينى من ناحية والتفكير الفلسفى الحر من ناحية أخرى .

أما دور بنى الأحمر والجللاء فقد عُرِفَ بحياة الرخاء وحياة القلق ، رخاء داخلى وقلق يبيته فى النفوس علو متربص شَعَرَ بضعف الفاتحين واستلامهم فأخذ ينزل بهم النكبة تِلْوِ النكبة ، وفى هذه الغمرة أخذت النفوس الحساسة تنشر شعر الآتين حيناً وتجار بشعر الاستنجد والصريخ حيناً آخر . وقد نضجت فى هذا الدور تلك الفنون الأدبية التى استحدثت فى الأندلس من موشحات وأزجال وساعدت أوزانها وتقاميمها على أن تجد فى اللحن والغناء طريق ذيوها وانتشارها بين الناس بعد أن وجد لها الغناء نفسه طريق نشأتها وسبيل بزوغها (١) .

وقد شهد هذا الدور أعظم محنة نزلت بالعرب على أيدي ملوك الإفرنج وزعمائهم الدينيين ، وتجلتْ فى ألوان من الاضطهاد الدينى والقسوة والتعذيب الذى لم يته إلا بعد أن تمّ الجلاء الأخير سنة ١٦٠٩ م . وكانت دواوين التفتيش التى أنشأها الإفرنج لحوكل أثر للإسلام والعرب ، لطحه عارٍ فى تاريخ المدينة . وقد أحرقت تحت تأثير هذه الحملة التعصية الكتب العربية الكثيرة وأبيدت روائع الفكر الإسلامى وأتلفت آثار العبقريات ، ولولا أن هذه العبقريات العربية كانت أقوى من يد

(١) يرى الدكتور جبرائيل جبور أن اتصال هذه الفنون الجديدة بحياة العامة من سكان الجزيرة الأصليين كان عاملاً على ظهور فن شمرى غنائى عند التروبادور Troubadours وليس لدينا ما يبنى هذا القول إلا أنه من الممكن أن يكون التروبادور أنفسهم قد أثروا فى نشأة بعض هذه الفنون الشعرية الأندلسية وأثر فيها أيضاً أدب اللغة الرومانية Roman نفسها وقد كان معروفاً على حدود الدولة الإسلامية القائمة فى إسبانيا .

الإنسان الغاشم لما كنت ترى اليوم ما يشهد على ما شاده الفكر العربي في بلاد الأندلس من مجد وما مدّ به الحضارة الأوربية والإنسانية من روح أصيل . كل ذلك قد جرى مقابل اللين والتساهل اللذين أبادهما الفاتحون العرب للنصارى واليهود في الأندلس والتشجيع الذي أغدقوه لنقل العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية في جميع الأمصار التي فتحها العرب .

\* \* \*

وقد شهدت بلاد الأندلس طوال هذه الأدوار مختلف المعارك وضروب المحن واللهو والاضطهاد والتساهل ، وجرى فيها كثير من الاختلاط بين الأجناس والأقوام ، فالعرب الذين تحدّروا إلى الأندلس ، جاءوا بطوائفهم الكثيرة وقبائلهم المختلفة ومواليهم الذين ينتمون إلى شتى الجنسيات في الشرق ، والبربر إنما نزلوا بها مع الفاتحين ، وامتزجوا جميعاً بسكان الجزيرة الأندلسية وما يجاورها من قوط وإسبان وصقالبة وغيرهم من شعوب الفرنجة . ونشأ من هذا الاختلاط أجيال جديدة مولّدة ، لم تتصف بها الأقطار الأخرى التي دخلها العرب في فتوحاتهم . وسرى تفصيل هذه العناصر التي كوّنت شخصية الأندلسي .

## الفصل الخامس

### عناصر الشعب الأندلسي

لدراسة عناصر الشعب الأندلسي<sup>(١)</sup> يجب أن نبدأ بعهد الفتح الذي يسوغ الهجرات الأولى التي هي في نظرنا أهم الهجرات ، ثم نستعرض الحوادث السياسية التي كانت سبباً ، في التالي ، لدفعات شعبية نحو الجزيرة من أصل شرقي أو إفريقي . وهذه الدفعات العربية والبربرية لا يمكن تفريقها ، فالحوادث التي سببها مختلطة في تشعبات تاريخ مبدأ الإسلام في إسبانيا .

ومما لا شك فيه أن إسبانيا قد فتحت في بادئ الأمر بعون البربر ، بل لعل الحملة الأولى كانت مؤلفة من برابرة فقط كما ذكرنا وكما يؤكد المستشرق ليفي بروفنسال ، ولم يدخل العنصر العربي الجزيرة الإسبانية إلا عندما قدم إليها موسى ابن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية .

ويظهر لنا أنه بعد أن تم الفتح وعاد طارق وموسى إلى الشرق ، بقي الجنود الفاتحون ، خلال السنين الأولى ، في الجزيرة لا يغادرونها ، فأقاموا في هذه البلاد الجديدة وتزوج أكثرهم بنساء الشعب المغلوب وأسسوا أسراً .

ولكن هذه النواة البربرية العربية العسكرية قد تبعها ، خلال القرن الثامن الميلادي ، دفعات أخرى هامة إفريقية وشرقية ، ويظهر أن الولاة الذين كانت تعينهم دمشق لم يحبذوا بادئ الأمر إسكان الجزيرة بالعرب ، ويتراءى من إشارات المؤرخين أن بربر المغرب قد قدموا الجزيرة مدفوعين بنجيراتهم . ولكنهم منذ البدء لم يلاقوا استقبالا حسناً ، وهكذا أخذ المغاربة البرابرة يتدفقون نحو الجزيرة ويكوّنون الأكثرية الإسلامية فيها ، واستطاعوا بهذه الكثرة أن يقاوموا العرب ويقوموا بفتح عديدة ، وكانت كل ثورة يقوم بها البرابرة في المغرب تجد صداها في بلاد الأندلس ، وما إرسال جنود بلسج الشاميين إلى بلاد المغرب ومنها إلى الأندلس إلا

(١) انظر : Lévi-Provençal, Ibid., P. 8-40 .

لقمع هذه الثورات ، وقد استطاع هؤلاء الجنود الشاميون سحق البرابرة إلا أن خطرهم كان جاعاً .

إن قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الجزيرة قد سبب تدفقاً جديداً للعرب نحوها . وقد استدعى إليها عدداً كبيراً من المغاربة المسلمين ، بينهم عدد من البربر لتقوية جنده ، ويشير المقرئ إلى أن عبد الرحمن الداخل قد اعتمد على البرابرة في مبدأ حكمه ليقاوم العناصر العربية المناوئة ولكن هذا لم يمنع البرابرة أيضاً من القيام بمكرات عسبان . ومهما يكن من أمر فإن اضطراب هذه العناصر البربرية والعربية لم يهدأ إلا عندما استطاع عبد الرحمن الثالث إخضاعهم إلى الطريق السوي ، فأذعنوا عندئذ لهيبة الملك ، وخضعوا للسلطان الذي شاده . وهكذا نلاحظ أن مجرى الهجرة نحو إسبانيا كان تابعاً للحوادث السياسية لا سيما في العهدين الأولين : عهد الولاة وعهد الإمارة ، وكانت الصبغة البربرية هي الطاغية إلى أن جاء عهد الخلافة .

\* \* \*

يميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التي جاءت فحلّت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام ، وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى ، عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولدين . فاسم المسالمة يطلق على الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام ، واسم المولدين على نسلهم . أما الإسبانيون الذين احتفظوا بدينهم فيسمون بالعجم أي الأعراب أو الأجانب .

وكان المولّدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية . لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب ، بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم في الازدياد منذ حُكّم عبد الرحمن الثاني إذ قد اعتنق في عهده كثير من الإسبانيين الذين الإسلامى ، وكان بينهم من دخل في خدمة العرب المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الإسباني ، ومن هذه الأسر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام من كانت غنية وقوية لا سيما في إشبيلية التي وجد فيها الإسلام أنصاراً

منذ ظهوره في الجزيرة ، ولا شك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولدين على أثر الاختلاط والزواج ، ولم يبق بين أكثر العرب من لا يجرى في عروقه دم إسباني . وهذا الاختلاط قد كثر زمن الخلافة الأموية ولا سيما في المدن .

هذا وقد قلّ شأن الدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته الأسر العربية الكبيرة في مبدأ الاحتلال ، وأخذت هذه الأسر تخضع للنظام الأموي الذي عمّ الجزيرة منذ نهاية القرن التاسع الميلادي .

وعندما حلّ عهد ملوك الطوائف كنتَ ترى من كان أصله بربرياً ومن كان أصله عربياً ، إلا أن الصفة الأندلسية هي التي كانت تربط العرب بعضهم ببعض ، فهم أندلسيون قبل كل شيء ، ولهذا يجب ألا نتحدث إلا عن طائفة أندلسية وأخرى بربرية وثالثة صقلبية نسبة إلى الصقالبة ، أما الطائفة العربية فهي بالأحرى تلك التي نسميها أندلسية .

وكان من عادة مؤلفي التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربي أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجلد الأول الذي جاء إلى الأندلس ، فيسلسلون نسبه عادةً إلى أن يصلوا إلى عهد موسى بن نصير أو يجعلونه منحدرًا من أحد الأشخاص الذين جاءوا مع حملة بلج ، ومن النادر ألا يكون هذا الجلد الأول من رجال ما يسمونه ( الطالعة الأولى ) أو البلديين أي من رجال حملة الفتح ، أو من رجال ( الطالعة الثانية ) أي جند بلج أو الشاميين . وقد حافظ عرب إسبانيا على تقسيمهم القبلي حتى جاء المنصور بن أبي عامر ، ويشير المقرئ إلى ذلك فيقول : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعماثر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداھية الذي ملك سلطنة الأندلس » (١) وقد رأينا أن المهاجرين الأولين قد نقلوا معهم نزاعهم القبلي : بين قيسيين ويمانين ، وعندما هدأ هذا التنافس ، مع الزمن ، لم يمح مع ذلك هذا التقسيم العنصري الذي كان أساساً لكتاب الأنساب الذي ألفه ابن حزم ، وظهر أيضاً في رسالة ابن غالب

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٩ - العائر : ج عميرة وهي الحمى العظيم .

« فرحة الأنفس » التي يذكرها المقرئ<sup>(١)</sup> والتي تقدم لنا معلومات قيمة عن أنساب العرب وقبائلهم التي قطنت الأندلس في عهد الدولة الأموية .

ولكن رسالة ابن غالب لم تشر ، في أثناء تعدادها لقبائل العرب وتوزيعهم في مختلف الأقاليم الأندلسية ، إلى ذكر جند بلج ، هذه الطبقة الشامية الخاصة التي سكنت الأندلس منذ سنة ١٢٥ هـ ، وتوزعت في الأقاليم الجنوبية ، والتي نقلت إلى الأندلس التقاليد العسكرية السائدة في الشام . وكان هؤلاء الجند يعيشون من إقطاعات منحها لهم حكومة قرطبة ، ولهذا كانوا على استعداد لإجابة رغباتها والدفاع عنها كجندها الخاص ، وقد أقاموا في المدن واستخدموا عمالاً يستثمرون لهم إقطاعاتهم التي كانوا يعيشون من وارداتها لأنهم لم يعتادوا حياة الزراعة .

وكذلك نزلت هذه النزعة أسر عربية أخرى تنحدر من رجال ( الطالعة الأولى ) أو البلديين ، فكانوا يفضلون سكنى المدينة ، ورأينا معظم الأسر العربية الأرسقراطية تقطن مدن الأندلس الجنوبية ، بينما ترك إلى طبقة المولدين استثمار الأرض ضمن شروط حرة أو مقيدة .

وقد جذبت العاصمة قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي كثيراً من الأسر العريقة لما فيها من مباحج الحياة المدنية .

ولم يكن الأمر كذلك فيما يخص العنصر البربري . فقد فضلت أقلية ضئيلة سكنى المدن . هذا ولا نملك مصادر كثيرة تتعلق بسكنى العناصر البربرية القادمة من إفريقية ، وليس لدينا إلا صفحة من كتاب ابن حزم وبعض الإشارات الموزعة في تاريخ ابن خلدون . ويجب أن نلاحظ أنه إذا كانت العناصر العربية قد تركزت منذ القرن التاسع للميلاد في بلاد الأندلس ولم يأتها بعد ذلك إلا دفعات ضئيلة فإن الهجرة البربرية إلى الأندلس قد امتدت حتى عصر الموحدين . فالسياسة الإفريقية التي كان يتبعها الخليفة عبد الرحمن الناصر والخليفة الحكم للمثاني والمنصور من بعدهما كانت تساعد هذه الهجرة وتحبذها ، إذ أن خطر الفاطميين جعل هؤلاء الخلفاء يتبنون إلى تقوية مركزهم بالاعتماد على العناصر البربرية ، ولقد رغبوا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٢٨ .

فيها لتقف في وجه الأرستقراطية العربية من ناحية وفي وجه الأرستقراطية الصقلية من ناحية أخرى .

نعم ؛ لقد جددت هذه الهجرة البربرية التي كثرت خلال آخر القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر - أقول لقد جددت عناصر الشعب الإسلامي ، إلا أنها أدت إلى كثير من الفوضى والاضطراب وقادت الخلافة إلى الانهيار كما رأينا .

هذا ويشير المؤرخون العرب ولا سيما ابن العذاري إلى أن أكثر المستعمرات البربرية كانت قائمة في الجبال ولا سيما في الجبال الجنوبية كفحص البلوط وجبال كرمونا وغيرها وفي المرتفعات الغربية أيضاً .

وقد كانت قرطبة تضم بين سكانها عدداً من البرابرة ، ولكن أكثرهم كانوا موالى للأمرء الأمويين منذ سنين عديدة ، حتى إنهم قد نسوا ، بتأثير اتصالم الطويل بالحياة المدنية ، كل علاقة تربطهم بأصلهم الإفريقي الجبلي .

ولم يكن الناصر أول خليفة قلده بعض البرابرة القاطنين قرطبة مناصب القيادة العسكرية والإدارة والقضاء ، بل رأينا عدداً منهم قد وصل إلى أمثال هذه المناصب العالية في عهود أخرى تلت عهد الناصر . وهؤلاء البرابرة الذين تمصروا هم الذين يشير إليهم ابن حزم في الصفحة المخصصة لهم في كتابه الأنساب ، ويؤكد لنا أصل الشاعر ابن درّاج القسطلي ويقول إنه بربري ، وابن درّاج هذا مع ابن صاعد البغدادي يمثلان البيئة الأدبية في قرطبة في أثناء عهد الخلافة أصدق تمثيل .

### الصقالبة :

وهناك طبقة اجتماعية أخرى أخذت تلعب دوراً هاماً في حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولا سيما في قرطبة ، هم أولئك الموالى المنحدرون من أصل أجنبي ، الذين كان يسميهم العرب الصقالبة . وهذه التسمية التي كانت تدل على الشعوب التي كانت تقطن الأراضي الممتدة بين الآستانة وبلاد المجر بدأت تأخذ معنى خاصاً في إسبانيا . ويظهر أنها كانت تشمل في الأندلس الأسرى الذين كانت

تأسرهم الجيوش الجرمانية ثم تأتي بهم فتبيعهم إلى مسلمى إسبانيا . ولكن في عصر ابن حوقل ، أى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، كان يُقصد بهذه التسمية جميع العبيد الأجانب الأوربيين الذين دخلوا في عداد جنود الخليفة ، أو أنهم قبلوا للقيام بخدمات في البلاد . ويؤكد ابن حوقل قائلاً إنه عندما جال في إسبانيا ، زمن الحَكَمَ الثاني ، كان أكثر الصقالبة الذين شاهدتهم هناك لا يتحدثون فقط من شواطئ البحر الأسود ، بل هم أيضاً من المقاطعات الإسبانية الشمالية كمقاطعات جليقية Galice وكاتالون Catalogne أى (بلاد الإفرنج) ، ولومبارديا في إيطاليا .

وفي الواقع ، فقد كان أكثرهم أسرى جنسهم رجال من القرصان المغاربة أو الأندلسيين في أثناء غاراتهم على الشواطئ الأوربية للبحر الأبيض المتوسط ، أما من كان مُعداً لحراسة الحرم في البلاط ، فكان يشتريهم من فرنسا تجار مختصون من اليهود ، وكان لهم في فيردان Verdun سوق خاصة بهم<sup>(١)</sup> . وكانوا على الأغلب صغار السن عند مجيئهم إلى الأندلس ، ولكن سرعان ما يتعلمون العربية واللغة الرومانية Roman ويصبحون مسلمين .

وقد أخذ عددهم في الازدياد وبلغوا كما يقول المقرئ في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٧٥٠) صقليياً ثم ازدادوا إلى (٦٠٨٦) وارتفع هذا العدد حتى بلغ (١٣٧٥٠) واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضى وأصبح غنياً . وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين ، وإذا صدقنا ابن الأبار والمقرئ علمنا أن أحدهم ويدعى حبيباً الصقلبي قد ألف كتاباً يعدد فيه مناقبهم بعنوان « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » .

وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدعوا في عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية في الدولة حتى إنهم قد

(١) هذه السوق يسميها دورى « معرناج الحميان Manufactures d'enuques » .

قلدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرسقراطية العربية ويحاربها . وهكذا لم يتردد الخليفة الناصر في أن يعهد إلى الصقلبي نجدة بقيادة حملة وجهها ضد ملك مقاطعة جليقية الإسباني على الرغم مما أبدته حاشيته من استياء . وقد أظهر خليفة الناصر ، الحَكَمُ الثاني ، كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه ، لا سيما بعد أن أخذوا يعمنون في التكبر والوقاحة ، وعندما توفي الحَكَمُ الثاني كان الصقالبة أسياد الموقف . ويشير ابن العذاري في ( البيان المغرب ) إلى أن عدد الحصيان في قصر الخليفة الحَكَمُ الثاني قد زاد على الألف . وكان حرس مدينة قرطبة بقيادة صقلبيين هما فائق النظامي وجؤذر .

ومجمل القول أن الدور الذي لعبه الصقالبة في أثناء ضعف الخلافة الأموية كان سيئاً يشبه الدور الذي لعبه البرابرة ، إذ اشتركوا في جميع المؤامرات التي كانت تحاك في قرطبة ضد الكيان الأموي في نهاية القرن العاشر الميلادي .

• • •

يضاف إلى هذه العناصر الشعبية عددٌ كبير من الإسبانيين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ومن بينهم المسيحيون واليهود . والمصادر العربية التي لدينا عن هاتين الطبقتين قليلة ، بل هي أقل مما تملكه من المصادر عن العناصر الأخرى التي ذكرناها ، ولكن هناك مصادر لاتينية ومصادر عبرانية قد كشفت النقاب عن كثير من الأمور المتعلقة بحياة هاتين الطبقتين (١) .

وقد بدأ ، منذ خمسين سنة ، اهتمام المؤرخين بالعناصر المسيحية التي كانت تقطن الأندلس ، وأخذ يسند إليها دور هام لعبته في الحياة الاجتماعية الأموية .

(١) هناك مصدر لاتيني هام للمؤلف Simonet عن تاريخ مسيحي الأندلس ، ويسميه المؤلف

باسم الـ Mozarabes de Espana, Madrid, 1903 هو :

أما المصدر العبراني فهو للمؤلف Groetz ترجمة Stenne وعنوانه :

Les Juifs d'Espagne, Paris, 1872

وقد أصبح هذا المرجع اليوم قديماً في نظر المؤرخين .

ولكن بعض هذه الأبحاث التي كتبت في هذا الصدد لا تخلو من التحيز ولا سيما عندما يولون هذه العناصر مكانة تفوق مكانتها والدور الذي لعبته .

ومهما يكن من أمر فإن عدد الذميين كان كبيراً وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه في أية بقعة إسلامية أخرى . وقد جرى بينهم وبين الفاتحين من الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله في أى صقع إسلامي آخر . وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من التساهل على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عندما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد .

هذا وقد كانت هذه العناصر المسيحية مراكز للمقاومة الوطنية التي تحاك ضد الفاتحين ، ولئن كان المسلمون قد أخمدوا حركاتهم الثورية بشيء من القسوة أحياناً إلا أن الدافع إلى هذه القسوة كان سياسياً لا دينياً .

وكذلك فقد كان العنصر اليهودي كبيراً في الدولة الأموية ، وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كححررين لأن القوط كانوا يسمون اليهود أنواع العذاب ، ولهذا فقد قدموا للعرب المساعدة ، وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة . وقد تقلب بعضهم في مناصب الدولة ولا سيما في عهد الناصر ، أما في عهد المرابطين والموحدين فقد نالهم العذاب .

• • •

هذا الاستعراض لمختلف العناصر الجنسية التي تألفت منها الدولة الأموية يبين لنا كيف كانت هذه الدولة مزيجاً متبايناً من عناصر تختلف في العرق وفي الدين وفي الأهواء والغايات . وقد أدى هذا المزيج إلى أن تتصف الدولة بصفة خاصة تميزها عن باقي الدول الإسلامية . ولهذا كان الشاغل الأول الذي يشغل حكامها وخلفاءها هو أن يحققوا ، ضمن هذا المزيج ، وحدة تستند قبل كل شيء إلى القوة ، وأن يمنحوا دولتهم بناء متيناً يشبه بناء الخلافة الشرقية في أوج مجدها أو بناء الدولة الفارسية أو البيزنطية ، آخذين بعين الاعتبار العناصر المختلفة التي يجب أن تبقى

دائماً في خضوع تام للسلطة الحاكمة . وقد استطاع هؤلاء الحكام أن يحققوا الغاية التي يرمون إليها خلال قرن من الزمن يمكن اعتباره عصر الأندلس الذهبي . ولكن عندما بدأ يضعف السلطان الأموي وتظهر الرغبات الكامنة في قلوب هذه العناصر المختلفة ، أخذ ذلك البناء الذي شاده عبد الرحمن الثالث بحزمه وقوته يتأرجح شيئاً فشيئاً ، حتى جاءت الفتنة إثر الفتنة ، وكان هذا الاختلاف الجنسي من أعظم الأسباب التي أزلت ملك الإسلام في الأندلس .

## الفصل السادس

### شخصية الأندلسي

هل يمكننا أن نتكلم عن مجتمع أندلسي ؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب ألا ننسى ما قلناه سابقاً عن العناصر المختلفة التي تؤلف الشعب الأندلسي ، وعلى رغم اختلافها وتعددتها الظاهر فقد تركت في الأندلسي صفات مشتركة استطاعت أن تمنحه شخصية خاصة به ؛ فالطبيعة نفسها فرضت سلطانها في تكوين هذه الشخصية ، والاختلاف العنصري نفسه لعب أيضاً دوره في تكوين هذه الشخصية ، إذ - سواء أكان الأندلسي عربياً أم بربرياً ، أم صقلبيّاً ، أم إسبانياً محافظاً على دينه - كنت تراه يتميز بصفات لا تجدها عند هذه العناصر التي بقيت خارجة عن محيط الأندلس . ولكن هذه الشخصية لم تكن لتستدعي أن تمحو كل الصفات الأخرى التي تميز العربي عن البربري وعن الصقلي وعن الإسباني ، كما يريد أن يعتقد به المستشرق هنري به رس<sup>(١)</sup> . فالشخصية الأندلسية إذاً موجودة ضمن هذا الاختلاف العنصري وبما لاشك فيه أن ظواهر هذا الاختلاف تقل عندما ننظر إلى الشعر الأندلسي من خلال الطبقات التي يتألف منها ، فالطبقة الأرستقراطية مثلاً أو طبقة الحكام قد تجمعها صفات واحدة على رغم اختلاف العناصر الجنسية التي تتألف منها . وكذلك الطبقات الأخرى المتوسطة أو الدنيا التي تشمل سائر غوغاء السوق . ومن المفيد أن نشير إلى أن لسان الدين بن الخطيب قد نظر إلى الشعب الأندلسي هذه النظرة أي من خلال الطبقات التي يتألف منها ولم يهتم كثيراً بالفوارق العنصرية ، وقد عدّ المستعربين أي الإسبانيين الذين حافظوا على دينهم والذين نسميهم بـ (Mozarabes) عدّهم من طبقة الأشراف . ونجد تقسيمه هذا في كتاب « أعمال الأعلام » عند كلامه على

(١) انظر : Henri Pérès: *la poésie andalouse en arabe classique au Xe siècle*, p. 16-20.

حكم هشام المؤيد<sup>(١)</sup>.

بعد هذه الملاحظات يمكننا أن نتكلم على صفات الأندلسي ، وقد أشار إليها كثير من المؤلفين العرب :

فابن غالب في رسالته « فرحة الأنفس » التي يذكرها المقرئ<sup>(٢)</sup> يصف لنا الأندلسي رجلاً مهتماً بلباسه وهندامه وطعامه محباً للنهو والغناء والموسيقى ، ونجده أيضاً ، إلى جانب هذه الحياة اللاهية ، حسن التدبير محباً للعلوم والفلسفة والعدالة . نعم إن الذي لا شك فيه أن الأندلسي قد تمتع بصفات تنحدر من باخوس ( Bacchus ) إله الخمر واللهو كما تنحدر من أبولون ( Apollon ) إله الفن والشعر ، ولهذا فليس عجباً أن نراه محباً للفن شاعراً ولاهياً عابثاً ثم بعد هذا منصرفاً إلى التنفقه في العلوم والتشريع والدين والفلسفة بتأثير الدافع الإسلامي وحسب التأمل وفهم أسرار الحياة . وقد عدّ ابن غالب من فضائل الأندلسيين اختراعهم للموشحات التي استحسها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعتها .

هذا وابن غالب لا يكتفي بذلك بل يحاول أن يجد بين الأندلسيين والشعوب الأخرى بعض المشابهات فيقول : « أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإياء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما في أيديهم ، والتزاحة عن الخضوع وإتيان الدنية ؛ هندیون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحتهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرمهم ، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعانائهم لضروب القراصات واختيارهم لأجناس الفواكه وتديبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبيساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة »<sup>(٣)</sup> .

مما لا شك فيه أن هذه الأقوال التي تصف الأندلسي تميزه بأموار لا نجدها عند عربى البادية ، ولا شك في أن للطبيعة الأندلسية أثرها في صقل هذه الشخصية

(١) نشر المشرق ليق برونسال هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ في مدينة الرباط .

(٢) نفع الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ - ٧٦٤ .

(٣) نفع الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ .

وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط ، ولكن لا يجب أن نرى فيها ما يحمل على الاعتقاد مع هنرى به رس أن الأندلسى شخصية قطعت صلاتها بأصلها وجنسها ، وإنما هى شخصية عرفت التلاؤم مع المحيط بل عرفت أن تعيش فيه . وإذا كنا نراها بعيدة فى نمط عيشها عن نمط عيش البدوى فما ذلك إلا لاختلاف الحياتين . ولكن وسائل التعبير بقيت هى هى ، وبقى الأندلسى ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشاركة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية فيها كثير من الشوق وكثير من العز وكثير من الرغبة فى عدم الابتعاد عن تقاليدهم المرسومة كما سنرى .

هذا ونرى ابن حزم يحنو حنو ابن غالب فى وصف الأندلسى فيجد فيه من المزايا ما تقربه من شعوب أخرى فيقول : « إن أهل الأندلس صينيون فى إتقان الصناعات العملية وإحكام المهن الصورية ، تركييون فى معاناة الحروب ومعالجات آلتها والنظر فى مهماتها »<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت هذه المقارنات توحى إلى نفوسنا ببعض الفكر الصحيحة عن صفات الأندلسى فإنها لا تصل إلى تعريفه تعريفاً صادقاً . ونشعر حقاً أن اللعب بالألقاظ قد يطول ، إذ أنها تستند إلى ضروب البيان والبلاغة والممدح أكثر من استنادها إلى علم الاجتماع . والأدب العربى حافل بأنواع هذه المشابهات وهذه الأوصاف التى لا يتردد الأدباء فى منحها لفريق دون فريق ، وقبيلة دون أخرى أو شخص مفضل دون آخر

هذا وقد وصف المقرئ أيضاً أهل الأندلس بصفات خاصة وامتدح ظرفهم وأدبهم وقال إن فيهم صفات متأصلة تميزهم عن غيرهم ويتناقلها أولادهم وعلمائهم وكبرائهم . لامراء فى أنه من العبث أن نحاول فى كلمات محدودة تعريف الأندلسى المسلم ، ولكن جميع الصفات التى وردت فى الأقوال السابقة لا يمكن إهمالها

(١) نفع الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ . فى الصفحات التالية من نفع الطيب نجد نص رسالة لابن حزم كتبها رداً على أبى الحسن بن محمد بن الربيب الحمى القيروانى الذى ذكر تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم فأجابهم ابن حزم داحضاً مزاعمه وبشيراً إلى من ألت فى تخليد أخبار علماء الأندلس وما ثرهم فى رسالة قيمة تذكر لنا أسماء طائفة من العلماء مع مؤلفاتهم وتطلعتنا على مظهر من مظاهر الحركة العلمية والأدبية فى ذلك العصر .

عندما نرغب في تعريفه ، وهي تثبت أن الأندلسي ، في نظر المؤلفين العرب . لم يكن عربياً صرفاً؛ إنه عربي وشيء آخر اكتسبه من الحياة الجديدة التي عاشها؛ ولذلك يحاول هؤلاء المؤلفون أن يجدوا بينه وبين الشعوب الأخرى بعض الصفات التي تقربه منهم ، فالاختلاط والحياة الجديدة والأصل العربي ، بل الحياة العربية التي تملأ مخيلته هي عناصر ثلاثة كوّنت الأندلسي المسلم في الجزيرة الإسبانية . نعم إنه أندلسي ولكن عند قراءة آثاره ولا سيما شعره لا نستطيع أن ننكر أصله العربي وصفته الشرقية ، فقد بقي هذا الأندلسي شرقياً في تفكيره شرقياً في أسلوب تعبيره إلى جانب بعض المميزات التي لا يمكن الفرار منها والتي هي ناجمة عن اختلاف المحيط الجغرافي والإنساني . لهذا نحن لا نستطيع أن نقول مع هنري به رس إن الأندلسي المسلم هو امتداد عنصري للشعوب الأصلية التي سكنت الجزيرة الإسبانية ، إن مثل هذا الحكم الجازم لا نستطيع أن نوافق المستشرق عليه ، ولا نستطيع الآثار نفسها أن توافقه على ما زعم . بقي علينا أن نعلم ما إذا كان هذا الأدب هو ظل للأدب الشرقي ، وهذا ما ستراه في الفصول المقبلة ، وسرى أنه ظل لشرق وحقيقة لأندلس .

## الفصل السابع

### سمات العصر الأندلسي في السياسة والاجتماع والفكر

يتصف العصر الأندلسي بصفتين متناقضتين هما : التعصب والاستبداد من ناحية ، والتساهل والحرية من ناحية أخرى .

أما التعصب فلم يكن على درجة واحدة وقوة واحدة في مختلف الأدوار التي مر بها هذا العصر . ولقد كان لوجود المسلمين في بقعة تناخمتها النصرانية وبناصبهم أهلها العداة أثر كبير في إذكاء الشعور الديني في نفوسهم ، وقد ساعد الفقهاء في دعم هذا الشعور وتقويته لما لهم من نفوذ ديني .

ولكن هذا التعصب الذي كان خيراً في سبيل دعم القوة الإسلامية ضد أعدائها ، كان في الوقت نفسه شراً على الحرية الفكرية عند المسلمين أنفسهم . وذلك أن الفقهاء ، حرصاً منهم على سيادتهم ، كانوا يثيرون العامة في كثير من الأوقات على المفكرين والفلاسفة ومنّ نظروا في أمور الدين والشرع والسنة ، ولا يحجمون عن أن يطلبوا من الخلفاء أنفسهم أن يمعنوا في التضييق على رجال الفكر . ولهذا كنت ترى عامة الشعب ، تحت تأثير دعوة الفقهاء ، ساخطين على الفلاسفة الذين كان ينظر إليهم أحياناً كزنادقة وملحدين . وكان من الطبيعي أن تروج الدسائس والسعايات في مثل هذا الجو ، وأن يلقي المفكرون العنت والشر فيعمد الخلفاء أحياناً في سبيل التودد إلى الفقهاء والعامة إلى حرق كتبهم واضطهادهم . فقد نكّب ابن رشد وأصحابه ونفى ابن هاني عن الأندلس ، وامتدت النقمة إلى الوزراء والقضاة فتألم السجن والاضطهاد كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

ولئن كانت الصفة الغالبة هي التعصب ؛ لقد كانت تمر فترات يأتي فيها ملوك عادلون ينتصرون لحرية الفكر دون أن يثيروا الفقهاء كما كان الشأن زمن الموحدين حيث انتعشت الفلسفة وقلت الوشايات ذات الصبغة الدينية .

إلى جانب هذا التعصب الديني الذي كان يكفم الأفواه ، كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ، فقد كانت الحياة الخاصة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية ما دامت لا تتصل بأمور السياسة والدين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية ، ولهذا كنت ترى الأندلسي يهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتاب في حمأة الدعارة ونظقت ألسنتهم بأفحش الأقوال . وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يرخون العنان للهوهم وطربهم وللهو الناس وطربهم ، ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسان الدين الذي له حرمة في النفوس . فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق وكان ضرر هذا التسامح أبلغ أثراً من ضرر التعصب ، إذ قد أفسد النفوس فاستسلمت للراحة والدعة وهان عليها أن تقبل الصدمات والذل ولا تتور لكرامتها فبقيت خانعة باكية معولة تحن إلى مجد آفل وعز سليب .

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية ما يرويه لنا ابن خاقان في المطمح عن مجلس مُزج فيه الجلد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر بن شهيد<sup>(١)</sup> في ليلة سبع وعشرين من رمضان في هذه الليلة المباركة التي يجب أن ينقطع فيها الإنسان إلى التهجذ والعبادة :

قال الفتح بن خاقان : « وأخبرني الوزير أبو الحسين بن سراج وهو بمنزل الوزير أبي عامر بن شهيد ، وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرايه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بياب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يخليه عن نشر دوره وأزهاره ، فقعده في ليلة سبع وعشرين من رمضان في لُمة من إخوانه ، وأئمة سلوانه . وقد حَقَّقُوا به ليقْتَظفُوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجلد بهزل ، ولا يفرط من انبساط مشهور ولا انقباض جَزَل . إذا يجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جزاريها ، من يسرّها ويواربها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنوبها ، وهي متنقبة ، خائفة ومن يرقبها مرقبة ، وأمامها طفل لها كأنه

(١) من شعراء الدولة العمارية ، ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

غصن آس ، أو ظبي يمرح في كناس ، فلما وقعت عليها على أبي عامر ولتت  
سريعة ، وتولت مررودة ، خيفة أن يشب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها ،  
قال قولاً فضحها به وشهرها :

وَنَاطِرَةٌ تَحْتَ طَىِّ الْقِنَاعِ      دَعَاها إِلَى اللَّهِ لِلخَيْرِ دَاعٍ  
سَعَتْ خَفِيَّةً تَبْتَغِي مَنْزِلًا      لِيُوصِلَ التَّبَتُّلِ وَالإِنْقِطَاعِ  
وَجَالَتْ بِمَوْضِعِنَا جَوْلَةً      فَحَلَّ الرَّبِيعُ بِتِلْكَ البِقَاعِ  
أَتَتْنَا تَبَخَّرَتْ فِي مَشِيهَا      فَحَلَّتْ بَوَادٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ  
وَرَبِيعَتْ حِذَارًا عَلَى طِفْلِهَا      فَنَادَيْتُ يَا هَذِهِ لَا تُرَاعِي  
غَزَالِكِ تَفَرَّقُ مِنْهُ اللِّيُوثُ      وَتَنْصَاعُ مِنْهُ كُماةُ المَصَاعِ  
فَوَلَّتْ وَلِلْمَسْكَ مِنْ ذَيْلِهَا      عَلَى الأَرْضِ خَطٌّ. كَظْهَرِ الشُّجَاعِ (١)

وهذا أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، كان رجلاً مستسلماً  
إلى الصباية ، كما يقول الفتح بن خاقان في قلاته ، لا يحفل بلام ولا ينتقل عن  
المدام ، فلنسمعه يتغزل بهذه الأبيات الرقيقة :

هَبَّ النَسِيمُ مَعَ العَشِيِّ فَشَاقَنِي      إِذْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الحَبِيبِ هُبُوبُهُ  
قَدْ كُنْتُ وَدَّعْتُ الصَّبَا بَوَدَاعِهِ      وَأَخُو الصَّبَابَةِ لَا تَفِيقُ نُدُوبُهُ  
فَدَعَا الهَوَى لِي دَعْوَةً لَمْ أَعْصِهَا      وَالصَّبُّ رَاحَةٌ قَلْبِهِ تَعْذِيبُهُ  
لَوْ لَمْ أُجِبْ دَاعِيَ الهَوَى وَعَاصَيْتُهُ      لَغَدَّتْ جُفُونِي بِالدَّمْعِ تَجِيبُهُ

ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين  
والمسيحيات من سكان الأندلس ، وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات ،

لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهني من الحياة الأندلسية وإنما يقدمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين Mozarapes وعن لباسهم وأزيائهم ، وعن الحرية التي كانوا يتمتعون بها في قيامهم بشعائهم الدينية وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطاً كبيراً ، فقد ذكر ابن خاقان في المطمح<sup>(١)</sup> « أن أبا عامر بن شهيد قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستثناس ، وقدرع النواقيس يهبج سمعه وبرق الحميماً يسرح لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل أطراح :

لا يعمدون إلى ماءً بآنيةٍ إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حمياً ، كأنما يرشف من شفةً لمياً ؛ وهي تنفح له بأطيب عرف ، كلما رشف أهدب رشف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل ، فقال :

ولرب حان قد شملت بديره      خمر الصبأ مزجت بصرف عصيره  
في فتية جعلوا السرور شعارهم      متصاغرين تخشعاً لكبيره  
والقس مما شاء طول مقامنا      يدعوا بعود حولنا بزبوره  
يهدى لنا بالراح كل مصفر      كالخشف خفره التماخ خفيره  
يتناول الظرفاء فيه وشربهم      أسلافهم والأكل من حنزيروه

هذه الأبيات الصريحة التي لا يستبعد أن تكون صراحتها مقصودة تشير إلى أكثر مما أشار إليه المستشرقون عندما ذكروها في مؤلفاتهم . ورسالة ابن عبدون<sup>(٢)</sup>

(١) ص ٢١ .

(٢) تبحث هذه الرسالة عن الحياة المدنية والمهن في إشبيلية في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي ، نشرها المشرق ليني برونسال سنة ١٩٣٤ في الجريدة الآسيوية (عدد : نيسان - حزيران) .

تثبت لنا أن هناك امتزاجاً شديداً بين الأندلسيين والمسيحيين المستعربين مما يؤيد أن الصورة التي يقدمها أبو عامر بن شهيد في الأبيات السابقة ليست على صراحها كثيرة المبالغة .

هذا عدا مشاهد الحب التي كان يصورها الشعراء والتي كانت ترسم لنا علاقات الأندلسيين بالمسيحيات والمستعربات ، وهي علاقات ما كانت لتقتصر على الطبقات العليا بل نجدتها في مختلف طبقات الشعب الأندلسي ولا سيما الطبقات الوسطى والدنيا . فالشاعر الرمادي<sup>(١)</sup> يشير إلى نوع من العلاقات المأجنة بشيء من الصراحة أحياناً ، فيقول مخاطباً الساقى النصراني :

أَدِرُّهَا مِثْلَ رَيْقِكَ ثُمَّ صَلَّبْتُ كَعَادَتِكُمْ عَلَى وَهْمِي وَكَاسِي  
فَقَضَّيْ مَا أَمَرْتُ بِهِ اجْتِلَاباً لِمَسْرُورِي وَزَادَ خُنُوعَ رَاسِي<sup>(٢)</sup>

ويقول في مكان آخر :

قَبْلَتُهُ قَدَامَ قِسِّيْسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيْسِهِ  
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ قَرَطِ شَوْقِي قَرَعَ نَاقُوسَهُ<sup>(٣)</sup>

• • •

وإذا كان الشعراء قد تعبهروا في حبههم وذكر علاقاتهم بالأوساط المسيحية فهناك آخرون قد أظهروا لنا وجهاً عفيفاً لهذا الاختلاط ، كما فعل أبو عبد الله بن الحداد<sup>(٤)</sup> أحد شعراء بلاط المرية زمن المعتصم ابن صمادح ، وإذا ما تلونا أشعاره التي نجدتها في النخيرة والتي تصور لنا حبه لأولئك النصرانيات كحبه لنسوية ،

(١) هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي ، شاعر قرطبي مجيد ، سريع القول عامر المتنبي ، توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) المطمح ص ٨٠ . نفع الطيب ج ٥ ص ١٨٠ ( طبعة محمد مجي الدين عبد الحميد ) .

(٣) المطمح ص ٨٣ .

(٤) توفي هذا الشاعر سنة ٤٨٠ هـ .

أقول إذا تلونا هذه الأشعار شعرنا بنفحة عنزية بدا مثلها فيما بعد على أشعار الروباجور . وأشعار ابن الحداد لما فائدة أخرى فهي تمنحنا صورة واضحة عن طريقة إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائهم الدينية كما كانت معروفة عندهم .

ولعلنا ، ونحن نرغب أن نعرض وجهاً من وجوه حياة الأندلس الالهية التي امتاز بها العصر ، قد استطعنا أن نبين لكم مدى الاختلاط الذي نشأ بين الأندلسيين المسلمين والإسبانيين اللواتي حافظن على دينهن ، ولاشك أن الأثر الذي تركه هذا الاختلاط في الشعر والأدب لا يمكن نكرانه .

• • •

والآن يجدر بنا ، كخاتمة لهذا الباب ، أن نلم بوصف مجمل لإدارة المجتمع الأندلسي والحياة العقلية فيه .

### إدارة المجتمع الأندلسي :

من الكتب القيمة التي تصف الحياة الاجتماعية الأندلسية ومنظماتها السياسية والإدارية والقضائية كتاب المستشرق ليني بروفسال المسمى (إسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي)<sup>(١)</sup> . لقد خصَّ المستشرق بحثه في هذا الكتاب بالقرن العاشر الميلادي إلا أن ما جاء فيه يمكن أن ينطبق على سائر العصور التي مرت بالأندلس بعد السنين الأولى من الفتح ؛ فما هي أبرز صفات هذه الحياة الاجتماعية التي كانت مسرحاً لحياة عقلية خصبة ؟

كانت السلطة العليا في الأندلس في مختلف العهود السياسية التي مرت بها بيد الأمير أو الخليفة . وكان يساعده في أمور المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء ، وكان له مستشاران يسميان بالوزيرين ، وكثيراً ما كان يطلق على كل منهما اسم ذى الوزارتين ، وكان لكل مصلحة في الدولة كتاب مختصون بها ، ككتّاب الرسائل وكتاب الذمام الذين ينظرون في شئون أهل الذمة . وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزراء رجل يسمى

(١) أشرنا إليه سابقاً ، واسمه بالفرنسية *L'Espagne musulmane au Xe. siècle* .

بالحاجب صارت وظيفته فيما بعد أعظم من وظيفة الوزير ، وقد استبد بعض الحجاج بالخلفاء كما فعل الحاجب المنصور . وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب ، وكان في كل مدينة قاض وكان قاضي الجماعة أى قاضي القضاة يقيم في قرطبة ، ولا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء .

وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفه العدالة ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات ، وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى رئيس الشرطة ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية . ويقوم المحتسب على شؤون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الأسواق ، ومن خصائصه مطاردة المنكرات والتأديب والعمل على احترام الأحكام الشرعية وقمع الغش والاختلاس في المعاملات . وكان للأندلس في عهدها الزاهر أسطول قوى كان يسمى قائده بأمر الماء . ووضعت أنظمة للجيش متأثرة بأنظمة الإفرنج وبضرورات الحياة التي كانت تحيط بالأندلسيين . وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء التي كان لها نفوذ واسع حاوات كثيراً أن تستغله في السياسة وتدير الملك ، وفي القضاء على الروح العلمية والثقافية بل كثيراً ما دبرت الثورات لقلب الحكم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً<sup>(١)</sup> .

وقد ساعدت تنحية العرب عن الجيش في زمن عبد الرحمن الداخل على وجود طبقة الجنود المتطوعة من بربر وصقلبيين ، فقامت بنصيبها الكبير من الفتن ، بل إن طبقة الحصيان والموالي أصبحت في عهود ضعف الدولة تتصرف في شؤون الخلافة والملك كما ذكرنا . وقد ضعفت الروح الحربية عند العرب كما ضعف الروح الاجتماعي وتدهورت الأخلاق وساعد الغنى ونخصب البلاد على انصراف الناس إلى اللهو والملاذات كما قلنا ، وظهر فيهم شعور الأثرة حتى استنجد المسلمون بالفرنجة أعدائهم . ونشأ من بين العرب أنفسهم طبقة الزراع والتجار والصناع الذين قاموا بنصيبهم في رقي الأندلس وحضارتها ، أضف إليهم طبقة الموالى المؤلفة من الإسبانيين وغيرهم الذين دخلوا في الإسلام ، وطبقة اليهود الذين كانوا منتشرين في إسبانيا .

(١) انظر ص ٢٧ و ٤٧ من هذا الكتاب .

ويجب ألا ننسى عاملاً اجتماعياً هاماً ساعد على تقويض الأندلس وضعف الروح الحربية في الأندلسيين وميلهم إلى الترف وهو تزوجهم أو تسريهم بالقوطيات (الإسبانيات) اللاتي أضعفن روح العروبة في أبنائهن كما بدا لنا ذلك في أثناء البحث عن عناصر الشعب الأندلسي

وقد انتشرت في الأندلس روح الفتوة التي سادت بالوقت نفسه لدى الإسبانيين والغربيين قاطبة وكانت لها قوانين متبعة وأصول مقررة إذا خالفها الفارس أحلَّ بشرفه .

وقد بقيت الفروسية الأندلسية عصوراً تجذب الأنظار إليها باكتمالها وروعيتها إلا أنها لم تستطع أن تُدْخِي في نفوس أكثر العرب روح الحرب لانصرافهم عنها إلى اللهو والرخاء ، وظلت على الأكثر مظهراً من مظاهر المباهج والتسامح . وقد كثر الشغف بالفروسية في حُكْمِ دولة بني الأحمر وكانت مبارياتها وحفلاتها من أجمل المباهج العامة التي تجرى في غرناطة . وكثيراً ما اجتمع فيها الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ويسوون منازعاتهم . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات إختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات في الحسن والأناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من المحافل العامة سافرات ، ويخلعن عليها جواً من السحر والروعة ينم عما كن يتمتعن به من الحرية<sup>(١)</sup> .

(١) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٣١ .

## الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

عرفت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة ، متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسي . فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة القوة في عهد الخلافة الأموية أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكرى ، ولما أنهارت الخلافة الأموية وسادت القوضى أرجاء الأندلس في عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية ونجت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها وسطعت شمس الأدب والفكر ، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكرها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ والمؤرخ ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والشاعر ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء الذين ذكرهم ابن خاقان في « قلائد العقيان » والمقرى في « نفع الطيب » . بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا — كما قدمنا — في طليعة الأدباء والشعراء ، كالعالم عمر بن الأفتس صاحب بطليوس ، والمعتمد والمعتمد صاحبي إشبيلية ، والمعتمد بن صمادح صاحب المرية .

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ما عتمت أن توقفت عقب تضعع دول الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، فقد كان هؤلاء المرابطون ، كما ذكرنا <sup>(١)</sup> ، شديدي التعصب ، قساة غلاظاً ، ألّفوا الحرب والحشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً . نعم لقد تألقت في عهدهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال الطيب أبى القاسم خلف بن عباس القرطبي <sup>(٢)</sup> والفيلسوف ابن باجة <sup>(٣)</sup> والفتح بن خاقان <sup>(٤)</sup> وابن بسام <sup>(٥)</sup> صاحب

(١) انظر ص ٢٦ ، ٣٢ من هذا الكتاب . (٢) توفى سنة ٥١٦ هـ .

(٣) توفى سنة ٥٢٣ هـ .

(٤) توفى سنة ٥٣٥ هـ .

(٥) توفى سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب « الذخيرة » ، وابن قزمان<sup>(١)</sup> صاحب الأرجال الشهيرة ، ولكن ظهورهم وأضرابهم في هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الفكرية التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف .

ثم جاءت دولة الموحدين ، فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة التفكير . لقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الحشونة والتقصيف ولكنهم كانوا أوسع أفقاً . وكان مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني . وأظهر خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث بعد أن قيدت في عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد كوفحت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس . وفي هذه الفترة ، أى في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغت النهضة الفكرية في الأندلس ذروة نضجها وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب ، وفي طليعتهم أبو جعفر بن الطليل الإشبيلي صاحب رسالة « حى بن يقظان » المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، والفيلسوف ابن رشد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، والرئيس موسى بن ميمون القرطبي المتوفى سنة ٦٠٢ هـ وكان يهودياً وهو من أشهر الأطباء والفلاسفة في عصره .

وقد كان ابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام ومفكره في ذلك العصر ، ومن أهم آثاره شروحه لفلسفة أرسطو في المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وغدت شروح ابن رشد أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التي ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربي . وكانت الأندلس ، بفضل ابن رشد وأمثاله من الفلاسفة والعلماء العرب ، عاملاً هاماً في رقى أوربا . فعن طريق الأندلس بالدرجة الأولى اطلع الأوروبيون على الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة .

وظهر في تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، عدد من أعلام الشعر والأدب مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وهو مؤلف كتاب الصلوة ، وابن بدرون الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع ، وهو شارح

(١) توفى سنة ٥٥٥ هـ .

قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء نبي الألفطس .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف . ومقصد الطلاب من كل فج ، وفيها المكتبات التي تضم الكتب النفيسة والتأليف النادرة في مختلف العلوم والفنون . وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون وأقيمت في عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التي تمتاز بجمالها الفني .

ولا اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والتغور الأندلسية ، قام المتغلبون يتنافسون في اجتناء أسلاب الدولة الذاهبة ، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً في يد النصارى ، وشغلت الأندلس بمحنها ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ومدافعة المغيرين ، فانكشمت فنون السلم ، واضطربت دولة التفكير والأدب ، ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحي القوة والنضج ، وقد أثرت المحنة في نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة وبعثت إلينا بطائفة من المراثي التي ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعها<sup>(١)</sup>.

وغادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتّاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل في جو أكثر استقراراً وطمأنينة ؛ مثل الشيخ محيي الدين بن العربي شيخ المتصوفين الشهير<sup>(٢)</sup> ، وابن البيطار المالقي<sup>(٣)</sup> وابن الأبار القضاعي<sup>(٤)</sup>

(١) من هذه المراثي مرثية أبي البقاء صالح بن شريف الرندي ، وكان أديباً وشاعراً جزلاً من أهالي رندة عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري وعاصر الفتنة التي تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، ولا نعرف كثيراً عن حياته .

(٢) ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى الشرق وبقى فيه حتى توفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

(٣) العالم النبات والطبيب المشهور ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري غادر الأندلس في شبابه وطاف بأرضاء المغرب وقدم إلى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ودرس عليه ابن أبي أصيبعة وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(٤) ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز في الفقه واللغة والنثر والنظم ، تولى الكتابة للأمير أبي جميل زيان أمير بلنسية ، ولما سقطت بلنسية بيد النصارى نزح إلى تونس وتوفى قتيلاً بتحريض خصومه سنة ٦٤٩ هـ . وكتب ابن الأبار في الأدب والتاريخ ومن آثاره تكملة كتاب لابن بشكوال .

وابن سعيد الأندلسي<sup>(١)</sup> . وكثيرون غيرهم ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وانجلت الفتن الداخلية : وانجلى الصراع بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى ، وانكسرت رقعة الأندلس تبعاً . وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي للمملكة الإسلامية القديمة . في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي برزت من غمر الفوضى وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بني نصر كما تقدم ذكره<sup>(٢)</sup> وإليها هجرت معظم الأسر الأندلسية القديمة وغدت . خلال مدة تزيد على القرنين ، مستودع تراث الأندلس القوي والسياسي ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي .

وفي ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وآنتت جواً من الطمأنينة والهدوء . وكان ملوك غرناطة من حماة الآداب والعلوم ، وسطع بلاط دولة بني الأحمر بتقاليده الأدبية الزاهرة على غرار قصور ملوك الطوائف .

ويجب أن نلاحظ أن الحركة الفكرية الأندلسية في عصر بني الأحمر تكاد تنحصر في النواحي الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصحابها الركود ، وقلما نجد في هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو غيرها من العلوم المحضة التي ازدهرت من قبل بالأندلس<sup>(٣)</sup> .

(١) أديب ورحالة ولد في غرناطة سنة ٦١٠ هـ وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ وله كتاب « المغرب في حل المغرب » .

(٢) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) من بين من اشتهر من العلماء والأدباء والشعراء في هذه الفترة :

- الكاتب الوزير ابن الحكيم أبو عبد الله محمد بن يحيى اللخمي الرندي ولد برندة سنة ٦٦٠ هـ .  
- وأبو حيان الغرناطي ولد بقرناطة سنة ٦٥٤ هـ وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ وكان بارعاً في اللغة والأدب ونظم الموشحات .

- ولسان الدين بن الخطيب قطب الحركة الأدبية في مملكة غرناطة ولد في لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ وأخباره نجدها في فتح الطيب في مجلدين ضخمين .

- ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب تزعم من بعده الحركة الأدبية في الأندلس . ولد سنة ٧٣٣ هـ وقيل سنة ٧٩٧ هـ .

هذا عرض تاريخي لأهم مظاهر الحياة العقلية في بلاد الأندلس ، والنظر إليها يرى أن العقلية العربية في الأندلس قد أثر فيها الاختلاط العنصري تأثيراً كبيراً ، إذ قد صنع الأمويون في الغرب الإسلامي صنع العباسيين مع الفرس وقربوا القوط إليهم كما ذكرنا فكان من أثر هذا الاختلاط امتزاج العقلية الآرية بالعقلية السامية فنضجت العقلية العربية وزهت الآداب وازدهرت الحضارة واقتبس الإسبانون ثقافة العرب لأنهم كانوا دونهم ثقافة ، ودخلوا في دينهم وتعلموا لغتهم وأدبهم وهجروا اللاتينية وأعرضوا عن كتب المسيحية ، حتى أصبح رجال الدين الإسبان يشكون من انصراف الإسبان المسيحيين عن اللاتينية إلى اللغة العربية ، ويأسفون على حماسهم الشديدة للغة العرب وعلى ضياع اللاتينية بين المسيحيين الذين يقبلون على العربية والشعر العربي ويدرسون كتابات متكلمي الإسلام وفقهائه لا ليفندوها بل لكي يكتبوا العربية في صحة وإتقان<sup>(١)</sup> .

وقد رأينا كيف شيد الأندلسيون المدارس حتى أصبح أكثر الناس متعلمين ، وكيف ازدهرت الآداب والفنون ازدهاراً يقوى وينخفض بحسب الظروف السياسية والعهود المختلفة التي مرت بها الأندلس ، وكيف أن روح التعصب قد حدثت أحياناً من نشاط الفلسفة والعلوم العقلية .

ويحسن أن نشير في النهاية إلى أن الأندلسيين كانوا في آدابهم مقلدين للمشاركة لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ، ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم ، وقد ظلت معاني الشعر الأندلسي سطحية ليس فيها إكثار من الحكم وطرق المعاني الفلسفية وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولا انصرافهم إلى اللهو والحياة السهلة .

وقد كان من نتيجة انتشار الكتابة فيهم وقلة الأمية أن كان عدد الشعراء والأدباء كبيراً ، فقد كان أكثر الخلفاء والفقهاء والوزراء ينظمون الشعر ، بل نجد روايات أدبية تذكر أن بعض السوقة ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى ،

(١) انظر : Dozy *Histoire des Musulmans d'Espagne* .

وعلى رغم كثرة عدد الشعراء ووجود طائفة من التابعين فقد قصّروا عن اللحاق  
بفحول الشعراء المشركيين ، وذلك لإقبالهم على اللهو وانصرافهم عن كل ما يكد  
الذهن من دراسات عقلية ، ولنظرهم المثلى لكل ما كان يرد من الشرق من فكر  
وأدب وفلسفة والنسج على منواله دون أن يعمدوا ، على الغالب ، إلى إبداع أصيل .